المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 10 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

ابن خلدون بين علم العمران وعلم الاجتماع

خليدة زكاري
أستاذة محاضرة، قسم الفلسفة، جامعة الجزائر 2
حميدة هرباجي
أستاذة محاضرة، قسم الفلسفة، جامعة الجزائر 2

تاريخ الإرسال: 2021/06/02 تاريخ القبول:2021/06/26

الملخص:

الهدف من هذه الورقة هو تسليط الضوء على فكر ابن خلدون وكيف اهتم بالمسائل الاجتماعية بعيدا عن التأمل البعيد عن الواقع هذا من جهة ومن جهة أخرى محاولة البحث عن العوائق التي وقفت أمام ابن خلدون في محاولته هذه.

الكلمات المفتاحية: علم الاجتماع، ابن خلدون، أوجست كونت

Abstract:

The aim of this paper is to shed light on Ibn Khaldun's thought and how he was concerned about social issues, away from mere contemplation of reality. On the other hand, the paper attempts to quest about the obstacles that stood in front of Ibn Khaldun enterprise.

Keywords: Sociology, Ibn Khaldun, Auguste Comte

مفهوم علم الاجتماع

بالرّغم من أن علم الاجتماع يعتبر حديث النشأة في القرن التاسع عشر غير أن الدراسات الاجتماعية اعتبرت قديماً جزءً لا يتجزأ من الفلسفة، فعند اليونان اعتبر أفلاطون أن عالم المثل أو عالم المعقولات هو العالم الأصلي الأبدي والذي يحوي جواهر الموجودات المفارقة للمادة والموجودة في عالم علوي مستقل عن العقول الفردية، حيث أن إدراك الحقيقة المطلقة لا يتم في هذا العالم الحسّي الواقعي لأنه في حقيقة أمره ليس إلاّ ظلاً ونسخاً غير حقيقية وهكذا يرى أفلاطون أن "البشرية لن تضع حدًّا للشرّ إلا عندما يتمتع الفلاسفة الحقيقيون بالسلطة السياسية أو عندما يصبح الساسة بمعجزة ما فلاسفة حقيقيين"[1]، حيث أعزى أفلاطون للفلاسفة مهمة تدبير شؤون الدولة نظراً لقدراتهم العقلية التي تجعلهم يدركون حقائق الأمور.

وفي العالم الإسلامي ظهر مفكرون اجتماعيون من أمثال "الفارابي" حيث قال: "الإنسان من الأنواع التي لا يمكن أن يتمّ له الضروري من أمورها إلاّ بالاجتماع"[2]، ومعنى هذا أن الإنسان

.

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 10 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

المفرد لا يستطيع تلبية احتياجاته بنفسه ومن ثمة فهو يحتاج إلى مساعدة الآخرين، وهكذا جعل الفارابي التعاون بين الأفراد الغاية القصوى لنيل السعادة وتحقيق المدينة الفاضلة والتي جعلها على رأس قائمة المدن التي صنفها الفارابي مثل: (المدينة الجاهلة، والفاسقة والضالة...) والتي يتعاون فيها الأفراد ويرأسها رئيس ناجح بشروط مكتسبة أساسها الحكمة... الخ.

على العموم يبقى كل ما أنتجه الفارابي وأفلاطون نظريات فلسفية قائمة على تصورات معيارية، أي دراسة المجتمع كما يجب أن يكون وليس كما هو كائن، لكن أول من خطى خطوة عملاقة نحو التأسيس العلمي لدراسة الظاهرة الاجتماعية هو "ابن خلدون" (1332-1406م) حيث ترك كل ما قيل في هذا الموضوع وذهب مباشرة إلى تتبع الظواهر الاجتماعية في تداخلاتها وتمفصلاتها.

ابن خلدون

لقد تناول ابن خلدون في مقدمته التي تعتبر من روائع الفكر الإنساني علاقة الفرد بمجتمعه، حيث جعل المجتمع الإنساني كأرضية أولى لأبحاثه ودراساته وتأملاته، وبمعنى آخر فإن النظرية الخاصة بالاجتماع الإنساني أو ما يعرف بنظرية العمران البشري قد بُنِيَت انطلاقاً من الواقع، وفيما يخص الاجتماع الإنساني فإن ابن خلدون يرى أنه من الضروري أن يكون الإنسان على علاقة مع بني جنسه لأنه مفطور على ذلك حيث نجد "أن نقطة الانطلاق في علم العمران هي القول الأرسطوطالي أن الإنسان حيوان مدني بالطبع، إذ هو لا يستطيع من غير مساعدة أقرانه أن يفي بحاجاته المادية الضرورية، ولا أن يقي نفسه من العدوان"[3]، فلولا التعاون الحاصل بين أفراد الجنس الواحد -ونقصد هنا بالطبع الجنس البشري- لما استمر الإنسان في العيش، فالإنسان لابد له من الاجتماع.

وبعدما تبيّن ابن خلدون ضرورة الاجتماع البشري أكّد على أنه من اللازم أن تكون له سياسة تديره وتنظمه حتى لا تكون هناك فوضى فيسود الظلم ويصبح القوي يأكل الضعيف، لذلك فقد قال: "[...] ثم إن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قرّرناه، وتم علم عمران العالم بهم فلابد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم وليست السلاح التي جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم كافية في دفع العدوان عنهم لأنّها موجودة لجميعهم، فلابد من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم وإلهاماتهم، فيكون ذلك الوازع واحداً منهم يكون له عليهم الغلبة

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 10 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحد إلى غيره بعد، وأن هذا هو معنى الملك، وقد تبيّن لك بهذا أن الإنسان خاصة طبيعية ولابد منها"[4].

وقد نجد أنه يوجد في بعض الحيوانات باستثناء الإنسان نوع من التنظيم كالنحل والجراد لما استقرئ فيها من الحكم والانقياد والاتباع لرئيس من أشخاصها متميز عنها في خلقه وجثمانه إلاّ أن ذلك موجود لغير الإنسان بمقتضى الفطرة والهداية لا بمقتضى الفكرة والسياسة"[5]، فقد ميّز الله الإنسان بالعقل وبذلك جعله أرقى المخلوقات، فالعقل هبة إلهية للإنسان فلولاه لما استطاع أن يشكّل مجتمعاً ذو سياسة وتنظيم حسن على عكس المخلوقات الأخرى التي تتميز بالعدوان والظلم، فالإنسان توصّل إلى مجتمع ذو سياسة ونظام معين بمقتضى عقله، أما غيره من المخلوقات فهي تعيش بفضل ما فطرت عليه وهداية من عند الخالق لذلك نجدها في صراع دائم من أجل البقاء.

العصبية

لقد أولى ابن خلدون اهتماماً خاصاً للعصبية انعكس بصورة واضحة في معظم مؤلفاته، التي نلتمس من خلالها مدى وعي ابن خلدون لهذا المفهوم الذي استعمله كثيراً حيث: "تشكل العصبية عند ابن خلدون عنصراً أساسياً في مكونات نظرية العمران، بل لعلّها في حدّ ذاتها تشكل نظرية مستقلة أو قانوناً... العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو في معناه الرئاسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية، الرئاسة عند أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم البيّن والشرف للموالي وأهل الاصطناع إنما بمواليهم لا بأنسابهم الغاية التي تجري لها العصبية هي الملك"[6]، حيث لا يخفى علينا أن ابن خلدون قد أسّس نظرية هامة في مجال علم الاجتماع وهي نظرية علم العمران "فإنه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى وهذا شأن كل علم من العلوم وضعياً كان أو عقلياً"[7].

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 10 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

وقد أرسى ابن خلدون قواعد علم العمران الأولى على مفهوم العصبية، هذه الأخيرة دائماً حسب ابن خلدون تنطلق من تماسك الأفراد الذين تجمعهم صلة الرحم أو غيرها من أوجه التقارب والتعاضد، وقد أشار ابن خلدون في أكثر من مرة إلى أن منطلق العصبية منطلق قائم على صلة القرابة بين مجموعة من الأفراد الذين يسعون في إطار العشيرة إلى إنشاء حضارة إذ بداية العصبية دائماً هي البادية: "العصبية تنبني على القرابة التي تنشأ عنها النعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة فهي تعمل في نطاق النسب المتواصل أي العشيرة، ويظهر أثرها الأساسي في التضامن ويكون موطنها الأول في البادية، فالعصبية التي تمثل قوة العصبية تقابل مفهوم Clan في اللغة الفرنسية والذي كان موضع الدراسة عند عدد من العلماء المعاصرين أمثال دوركايم وفينوجرادون"[8].

إن العصبية حسب ابن خلدون متوقفة على ذلك النوع من التفكير العقلي الذي رسخ في تفكير البشر الذين حوّلوه إلى حالة عملية يسعون من خلالها إلى تحقيق طموحاتهم في المجال السياسي، ولا ينسى هنا ابن خلدون الإشارة إلى الدور الذي تلعبه البادية في دفع العصبية دفعاً يقودها إلى توسع فعلي من خلال الممارسات الفعلية التي توصلها إلى السلطة والعصبية لأنّها سرعان ما تعود لتظهر في شكل صراعات مدنية بين الأفراد وخلاصة القول أن العصبية تمر بمراحل تطور ومراحل تدهور يقودانها إلى نهاية حتمية.

إن ما قام به ابن خلدون يمكنه أن نلخصه من زاوية إبستيمولوجية على أنه عمل قائم على ضبط مختلف العلاقات الاجتماعية في مختلف أبعادها، واكتشاف الشروط التي تتحكم في هذه العلاقات، حيث أن الانتقال من نمط اجتماعي معيّن (وهو ظاهرة اجتماعية بالمفهوم العلمي) هذا الانتقال حسب ابن خلدون يتطلب ديناميكية خاصة تنتج بفعل تغيير على مستوى النشاط الإنساني والذي بتغيره تتغير الظواهر الاجتماعية يمكن أن نحدّده بالإطار النفسي أولاً لأن الجانب النفسي له أهمية في أعمال ابن خلدون بل شكّل المحور الأساسي في أعماله، وعندما نقول الجانب النفسي فإننا نربط هذا المفهوم بمفهوم أساسي عند ابن خلدون إن لم نقل هو أهم مفهوم عنده وهو العصبية. فالعصبية في تصور ابن خلدون كما ذكرنا سابقاً حالة نفسية يكون عليها الأفراد الذين تربطهم روابط معينة، وهذا التعريف لهذا المفهوم يصدق على جميع حالات وأنواع العصبية التي ذكرها ابن خلدون، سواء كانت هذه العصبيات دينية أو دموية أو معاشية، وإذا أردنا أن نبحث من الناحية النفسية أي من وجهة نظر علم النفس المعاصر عن العوامل التي تجمع الأفراد وتربطهم نجد أن هناك عوامل كثيرة بعضها تناوله ابن خلدون وبعضها فلت منه، ولكن على اختلافها فهناك أمر واحد يجمعها وهو الاستعداد النفسي الذي يجعل الأفراد يلتحمون

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 10 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

ويتعاضدون ويجتمعون فيكونون قوة واحدة تستطيع أن تواجه وتجابه الغير، فهذه القوة هي حالة نفسية ولكن تنتقل إلى المستوى الاجتماعي حيث أن تماسك الأفراد يخلق فيهم شعوراً قوياً هو قوة الجماعة وهذا يؤدي بدوره إلى البحث عن السيادة، وهذا يترتب عليه بناء ظاهرة اجتماعية في بعدها السياسي هي جماعة قويّة وهذا ما يسمى في علم الاجتماع السياسي بالدولة وفي منطق ابن خلدون تأتي مرحلة أخرى ولأسباب اجتماعية تبدأ العصبية في التفكك، وهنا نكون أمام ظاهرة اجتماعية سياسية أخرى هي الانحطاط لتبدأ عصبية جديدة على أنقاض الدولة القديمة فتتكوّن بذلك دولة جديدة لوجود عصبية جديدة تمر بنفس الأطوار التي مرّت بها الدولة السابقة، ومن هنا اكتشف ابن خلدون أن هناك منطقاً لتطور المجتمع.

لا يخفى علينا إذاً أنّ ابن خلدون قد خطا خطوة كبيرة في مجال العمران وقام بعدّة دراسات على المجتمع الإسلامي لإيجاد مفاتيح تساعده على فكّ معظم الإشكاليات، وهذا ما جعل بعض المفكرين يعتبرونه المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع حيث "ترجمت إلى اللّغات الأوروبية أعمال ابن خلدون [...]، وقد اهتم الغربيون بشرح المقدمة، فكتب "آكوستآيف" في كتابه "العلامة ابن خلدون"، وقدّم لنا بأنسبيناسفتيلانا "العمران البشري في مقدّمة ابن خلدون"، وجوستانبوتول " ابن خلدون فلسفته الاجتماعية"، ولابيكا جورج "السياسة والدين عند ابن خلدون"، وتُرجِمَت هذه الكتب إلى العربية منذ منتصف القرن الماضي"[9].

لكن رغم كل ما قام به ابن خلدون من جهد فكري في سبيل موضَعة الظاهرة الاجتماعية إلاّ أنه لم يستطع تأسيس علم الاجتماع، وهذا راجع لجملة من العوائق كان أبرزها أن نظرية ابن خلدون صالحة لزمانه لا لزمان غيره، وهناك أيضاً سبب آخر بحيث أن ابن خلدون ذكر في أكثر من موقع أنّه أوجد علم جديد، لكن هذا العلم لابد أن يقوم على شروط معيّنة، وهذه الأخيرة استمدّها من الفكر اليوناني، بمعنى أنّه لم يتمكن من إحداث قطيعة مع الفكر اليوناني.

علم العمران كما رسمه "ابن خلدون" هو علم يرمي إلى ضبط التصورات التي تحكم العلاقات الاجتماعية، يعني أن علم العمران هو دراسة التحولات التي تحدث في الصيرورة التاريخية للمجتمع المتحول، ومن ثمة فإن علم العمران قائم في أساسه الإبستيمولوجي على مفهوم الطبائع وهي مفرد طبيعة، التي تعني علّة الشيء وهو مفهوم مستمد من الفلسفة الأرسطية.

بينما علم الاجتماع هو مفهوم مغاير تماماً لما كان متداولاً عند "ابن خلدون" أو من سبقه حيث أن علم الاجتماع في أدبيات مؤسسه "أوجست كونت" يعني البحث في العلاقات الممكنة بين

.

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 10 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

الظواهر المختلفة ومن ثمة فإن هدف لعلم هو اكتشاف هاته العلاقات في ترابطها وتشابكها كما هي في الواقع المعيش وليس في التصور الذهني لصاحب الدراسة.

مما يترتب عليه أن علم الاجتماع هو تجاوز كل تصور أولي والبحث عن العلاقات الموجودة بين الظواهر دون تدخل الذات العارفة في موضوع المعرفة، يعني ذلك إسقاط كل محاولة بشرية للتدخل في مضمون الظاهرة البشرية لذلك تعود الدراسات الاجتماعية المنظمة إلى القرن التاسع عشر والذي تميّز بتغيّر ضخم وسريع، نتيجة الثورات الصناعية والسياسية أو ما يعرف بالثورات الثنائية والتي أدت إلى تفكك بنية المجتمع، فقد أجبرت الثورات الزراعية الفلاحية على هجر الأرض ووفرت لهم الثورة الصناعية فرص العمل في المدن، وهكذا تعرّض عمال المصانع الجدد بما فيهم النساء والأطفال إلى ظروف الاستغلال القاسية، وبالمقابل تنعّمت الطبقة الوسطى من رجال الصناعة والتجارة والتمويل برغد العيش التي توارثوها من جهة، ونزوعهم نحو الاستعمار في ظل التوسع الصناعي من جهة أخرى[10].

وعموماً يمكن تعريف علم الاجتماع على أنّه: "الدراسة النظامية للمجتمعات ويتألف المجتمع من أفراد وجماعات، وبوسع علم الاجتماع أن يساعد الذات أو الفرد في فهم حياته بشكل أفضل وذلك بتفسير كيفية تأثير الأحداث الخارجية على الخبرات الشخصية"[11]، معنى هذا أن موضوع علم الاجتماع هو الظاهرة الاجتماعية أي دراسة الإنسان ككائن اجتماعي له علاقة مع أفراد آخرين وينتمون إلى مؤسسات اجتماعية مثل: الدولة، الأسرة، المدرسة... الخ، ويعتبر علم الاجتماع "مجموعة قواعد معرفية متنوعة ومتعدّدة وهناك منطلقات مجتمعية متعددة لكل منها حقائقها التي تستند إليها وحقها المتساوي بالاستماع إليها في المناقشات السوسيولوجية، ولهذا السبب لا يمكن الاستقرار على مجموعة متماسكة ووحيدة من الأفكار المقبولة لجميع ممارسي هذا العلم"[12]، أي اختلاف وجهات النظر للظواهر الاجتماعية نتيجة اختلاف الأطر الإيديولوجية لكل مفكر اجتماعي ولهذا لا يمكن تحديد تعريف جامع مانع لعلم الاجتماع، فمنهم من ينظر إليه باعتباره ظاهرة طبيعية منفصلة عن الذات الإنسانية ولذلك يجب دراستها دراسة علمية مثل "دوركايم" و"أوجست كونت" وأستاذه «سان سيمون"...الخ، ومنهم من يرفض هذا النوع من

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 10 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

الدراسات على اعتبار أن خصائص الظاهرة الإنسانية لا تطابق بأي حال من الأحوال الظاهرة الطبيعية مثل: "ماكس فيبر" و"كارل مانهايم"... الخ.

أورَدَ "بيترومسروكين" PetrumSrukin في مؤلفه "النظريات السوسيولوجية المعاصرة" عام 1928 آراء أكثر من ألف عالم وباحث في علم الاجتماع، الأمر الذي يجعل من الصعوبة تحديد من نجح منهم في تعريف علم الاجتماع[13].

على كلٍّ "لقد استعمل تعبير علم الاجتماع للمرّة الأولى في عام 1838 من قبل "أوجست كونت" بهدف تعيين علم ملاحظة الظواهر الاجتماعية، منذئذٍ استخدم هذا التعبير من أجل تمييز التحليلات التجريبية والنظريات التي تشكل الوقائع الاجتماعية موضوعاً لها، وكذلك كل نماذج وكل أنواع العلاقات بين الذاتية"[14] أي دراسة الظواهر الاجتماعية بأساليب وضعية علمية.

ويمكن رصد مجموعة من المفكرين الاجتماعيين أمثال: "هربرت سبنسر" Herbert Spencer (1820-1903) في بريطانيا، و"فيرنززومبارت" VernzZumbart(1863-1941)، و"جورج زيمل" George Ziml(1858-1918)، و"فيرديناندتونير" Ferdinand Tonnerre(1855-1936) في ألمانيا، وأيضاً "فلفريدو باريتو" Felfredo Pareto(1848-1923) في إيطاليا، و"وليام جراهام سمنر Graham Sumner William(1840-1910)، و"فرانك لستوراد" Frank Stured (1841-1913) في الولايات المتحدة الأمريكية... الخ[15].

الهوامش:

1. جون لويس، مدخل إلى الفلسفة، ترجمة أنور عبد المالك، دار الحقيقية، بيروت، الطبعة الثالثة، 1978، ص30.
2. الفارابي، السياسة المدنية، وزارة التراث القومي والثقافي، سلطنة عمان، ص64.
3. ماجد فخري، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ت كمال اليازجي، الدار المتحدة للنشر، 1974، ص449.
4. المرجع السابق، ص62.

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 10 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

5. ابن خلدون، المقدمة، الجزء الأول، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، 1991، ص62
6. مصطفى الشكعة، الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته، الدار المصرية اللبنانية، مصر، الطبعة الأولى، 1986، ص117.
7. إيّان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، ترجمة محمد غلوم، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1978، ص08.
8. محمد زينبر، ابن خلدون في الفكر العربي الحديث، أعمال مؤتمر ابن خلدون والفكر العربي المعاصر، الدار العربية للكتاب، تونس، 1980، ص190.
9. مجموعة من الأساتذة المصريين، مجموعة من الدراسات والبحوث في علم الاجتماع، تحرير محمد سعيد فرج، أعمال الندوة السنوية التاسعة لقسم علم الاجتماع، ص33.
10. مصطفى خلف عبد الجواد، قراءات معاصرة في علم الاجتماع، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، الطبعة الأولى، 2002، ص47.
11. جون سكوت، علم الاجتماع، المفاهيم الأساسية، ترجمة محمد عثمان، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 2009، ص27.
12. عبد الباسط عبد المعطي، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، المجلس الوطني للثقافة والآداب، الكويت، بدون طبعة، 1998، ص14.
13. عبد الباسط عبد المعطي، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع المرجع السابق، ص14
14. مصطفى خلف عبد الجواد، قراءات معاصرة في نظرية علم الاجتماع، مرجع سابق، ص226.
15. إيّان كريب، النظرية الاجتماعية، مرجع سابق، ص12.